﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: 92]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذَكَرتِ الآياتُ السّابقةُ طائفةً من أخبار الأنبياء الصّابرين؛ ناسب أن يُعقِّب على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ لبيانِ أنَّ هؤلاء همُ الأمَّة المَرضيَّة الواجب الالتفاف حولَها في الاعتقاد والأخلاق، والقول والعمل، فإنَّ الإيمانَ بهم يوجب العملَ الصّحيح في الاقتداءِ بهم واتِّباع نهجهم؛ فوحدة الأُمَّة قائمةٌ على وحدة المنهج في الصَّبر والثَّبات بسبب الإيمان والاهتداء؛ فهي أُمَّةٌ واحدةٌ، وربٌّ واحدٌ، ونهجٌ ثابتٌ.

بـعـدَ عـرضِ التَّفاصيلِ حَسُنَ الإجمالُ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّتُكُمْ﴾: أصلُ الأُمَّةِ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، سواء كان ذلكَ الأمرُ الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[1]، وقيل: هي جَماعَةٌ من النّاسِ أُرْسِلَ إلَيْهِم رَسولٌ، سواءٌ آمَنوا أو كَفَروا، وتُطلَقُ الأُمَّةُ على عالمِ دَهْرِهِ المُنفَرِدِ بِعِلمِهِ[2]، ومِن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدِّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له؛ أيْ: لا دينَ لَهُ[3]، وكذلك كُلُّ مَن كان على دينٍ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أُمَّة، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ من النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ[4]، والجَمعُ: أُمَمٌ، والمقصود بالأُمَّة في الآية: المِلَّةُ الَّتي يكون حالُها واحدًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأُمَّـة واحـدةٌ في إيمانِها واقتدائها واهـتـدائـهـا وعبوديّتها لربٍّ واحدٍ

في هذه الآية الكريمة يخاطب اللّهُ تعالى أُمّة نبيّه محمّد ﷺ،

(1) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمّ).
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 3/ 319.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمّ)، و(أمم).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سِيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمّ).

أو يخاطب الأُمم جميعًا: "إنّ ملّة التّوحيد الّتي جاء بها الأنبياءُ جميعًا، هي مِلّتُكم ودينُكم أيّها النّاس؛ فيجب عليكم أن تتّبِعوا هؤلاء الأنبياءَ، وأن تُخلِصوا للّه تعالى العبادة والطّاعة؛ فهو سبحانه ربُّكم وربُّ كلِّ شيء؛ فاعبدوه حَقّ العبادةِ لِتَنالوا رضاه ومَحبَّتَه"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل الآية عن سابقتها:

فُصِلتْ جملة ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عمّا قبلَها لِلقَطع والاستئناف؛ فالكلام يَحتمل "أن يكون مُنقطعًا خطابًا لمعاصري محمّد ﷺ، ثمّ أخبَر عنِ النّاس أنّهم تقطّعوا، ثمّ وعد وأوعد، ويَحتمل أن يكون مُتّصلًا؛ أيْ: (جعلنا مريمَ وابْنَها آيَةً لِلْعالَمينَ بأن بُعث لهم بمِلّةٍ وكتابٍ، وقيل لهم: إنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ)؛ أيْ: دُعيَ الجميعُ إلى الإيمانِ باللّه تعالى وعبادتِه، ثمّ أخبر تعالى أنّهم بعد ذلك اختلفوا وتقطّعوا أمرَهم"(2).

مِـلّـةُ الإسـلام هي مِلّةُ جميع الرّسل ﷺ

قال ابن عاشور: "والأظهر أنّ الجملةَ محكيَّةٌ بقولٍ محذوفٍ يدلُّ عليه السّياقُ، وحَذْفُ القولِ في مثله شائعٌ في القرآن"(3).

غرضُ التّوكيدِ ودلالتُه:

توكيدُ الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ لا لوجود مُنكِرٍ؛ بل لما اقتضاهُ عِظَمُ الخبرِ وأهميّتُه في ذاته، فالخبرُ قد يُؤكَّد لِخطورته في ذاته، بِقطعِ النَّظر عن وجود مُنكِرٍ، كما يقول المؤمن مُنفردًا: (لا إله إلا اللّه)؛ فيُؤَكّد الخبرُ بأقوى طُرُق القَصْر وهو النّفي والاستثناء؛ لأنّه ليس بالخبر الّذي يجوز النُّطقُ به هكذا بلا احتفالٍ وتوكيدٍ، فالتّوكيدُ يكون من "جهة أنَّ القضيَّة في نفسِها ممّا

الأخبارُ العظيمةُ الشّأنِ لا تُسرَدُ كبقيّةِ الأخبارِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 248.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 98.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 139.

يُهْتمّ به وإن لم يكن هناك منكرٌ"[1]، فالتّوكيد هنا "لمجرّد الاهتمام بالخبر؛ ليتلقّاه الأنبياء بقوّة عزْم، أو أنّه روعيَ فيه حالُ الأُمم الَّذين يَبْلُغهم ذلك؛ لأنَّ الإخبار باتِّحاد الحال المختلفة غريبٌ قد يُثير تردّدًا في المُراد منه؛ فقد يُحمَل على المجاز، فأُكِّد برفع ذلك، وهو وإن كان خطابًا للرُّسُل، فإنَّ ممّا يُقصَدُ منه تبليغُ ذلك لأتْباعهم؛ ليعلموا أنَّ دينَ اللّه واحدٌ، وذلك عونٌ على قبول كلِّ أُمَّة لِما جاء به رسولُها؛ لأنَّه معضودٌ بشهادة مَن قبلَه من الرُّسُل"[2].

بلاغةُ التّعريفِ باسمِ الإشارة:

تَجْمَعُ الأنبياءَ وحْدةُ الوِجهةِ والعقيدةِ وإنِ اختلفت شرائعُهم

الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تَجْمَع كلَّ ما سبقها من الأنبياء والمُرسلين وما يتعلّق بكلٍّ منهم من تفاصيل امتدَّت في الصَّفحات السّابقة لِتُدخلَهم تحت مظلّة التّوحيد، وتُحضِرَهم في ذِهن المُخاطَب مضمومًا أولُّهم إلى آخِرهم؛ لتحكم عليهم جميعًا بوَحدة العقيدة، ووَحْدة الوِجهة، ووَحدة المصير.

وفي الإشارة إلى تلك المِلَّة الحنيفيّة "تنبيهٌ على كمال ظهور أمرِها في الصّحّة والسَّداد"[3]، وفي الحديث: "الأنْبياءُ إخْوَةٌ لِعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى، ودينُهُمْ واحِدٌ"[4]، ويُحتمل أن تكون هذه إشارةً إلى الطّريقة الَّتي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد اللّه تعالى؛ أيْ: إنّ طريقتّكم وملتّكم طريقةٌ واحدةٌ لا اختلافَ فيها في أصول العقائد؛ بل ما جاء به الأنبياءُ من ذلك هو ما جاء به محمَّدٌ ﷺ[5].

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

إجمالُ المَذكورين وتشويقُ المخاطَبين

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه مُعرَّفًا بالإشارة (ذه)؛ ليجمعَ الرُّسلَ جميعًا

(1) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 1/ 74.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 1340.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3259)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2365)، والعِلّات: الضّرائر، أيْ: شرائعهم مختلفة، ودينُهم واحد.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 464.

بأيسرِ لفظٍ بحيثُ لا يُنسي بعضُه بعضًا؛ فالإشارة توجِز الحديثَ عنهم بخبرٍ عامٍّ: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ أيْ: (إنّكم يا أتْباع محمّدٍ ﷺ مُطالبون بالإيمان بِجميع الأنبياء والمُرسلين؛ فكلّهم إخوةٌ في الدّين وإنِ اختلفتْ شرائِعُهم)، كما أنَّ التّقديم يوحي بالتَّشويق لما بعدّه.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ:

تباينت أقوالُ العلماء في تعيينِ المُخاطَبين بقوله تعالى: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ فقيل: "الأنبياء المَذكورون في الآيات السّابقة؛ والوجهُ حينَئِذٍ أن يكون القولُ المحذوفُ مصوغًا في صيغة اسم الفاعل منصوبًا على الحال، والتّقدير: قائلين لهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ إلى آخِره، والمَقولُ مَحْكي بالمعنى؛ أي: (قائلين لكلّ واحدٍ من رُسُلنا وأنبيائنا المَذكورين ما تضمّنته جملةُ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾)"[1]، وقيل: الخطابُ "للنّاس قاطبةً"[2]، "وجَوَّز بعضُهم كونَ الخطابِ للمؤمنين كافَّة، وجعله الطّيبيُّ للمُعانِدين خاصّة؛ حيثُ قال في وجْهِ ترتيب النَّظْم الكريم: إنَّ هذه السّورةَ نازلةٌ في بيان النُّبوَّة وما يتعلَّق بها، والمخاطَبون المعانِدون من أُمّة محمّد ﷺ، فلمّا فرغ من بيان النّبوّة وتكريره تقريرًا ومِن ذِكْر الأنبياء عليهم السلام مُسَلّيًا؛ عاد إلى خطابهم بقوله تعالى شأنُه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾، وقيل: الخطاب "لمعاصري الرّسول ﷺ"[3].

الـــرُّســـلُ وأقـوامُـهـم أُمَّـةٌ واحـــدةٌ ذاتُ عقيدةٍ واحدةٍ

دلالةُ الإضافة إلى ضمير المُخاطَبين:

أُضيف لفظُ الأُمّة إلى ضميرِ المخاطَبين؛ إشعارًا بالانتماءِ الَّذي يجب أن يكون عليه أتباعُ الأمَّة الواحدة؛ وإيحاءً بأن أُمّة النّبيّ محمّد ﷺ أوْلى بهؤلاء مَن أتباعهم الَّذين حرَّفوا شرائِعَهم، كما

توريثُ الانتماءِ لأُمَّـــة الإســلامِ كافَّةً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 139.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 464.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ [آل عمران: 68].

بلاغةُ التّقييدِ بالحالِ:

مَـــنِ انـضـوى تحت التّوحيد الـخـالـص نـالَ شرَفَ الانتماءِ

قولُه تعالى: ﴿أُمَّةً﴾؛ "أي: دينًا واحدًا وهو الإسلام؛ فأبْطَل ما سوى الإسلام من الأديان، والأُمَّةُ: الجماعة الَّتي هي على مَقْصِدٍ واحد؛ وجُعلتِ الشّريعةُ ﴿أُمَّةً﴾ لاجتماع أهلها على مَقْصِدٍ واحدٍ"[1]، و﴿أُمَّةَ﴾ "حالٌ لازمةٌ، وقيل: بَدَلٌ من الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾"[2]، فعلى القول بالحال ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ تأكيدٌ على أنّ هذه الأُممَ العديدة ستكون أُمَّتَكم في حالةِ الاجتماع على ما جاؤوا به جميعًا؛ وهو التّوحيد الخالصُ لله ﷻ، وأنّ مَن اختلّ من أتباعهم وانحرف إلى الشّرك لا يستحقّ شرَف الانتماء إلى هذه العَظَمة، والانضواءِ تحتَ تلك الجماعة المؤمنة؛ وأنّ "هذه ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ في حال اجتماعها على الحقِّ، فإذا افترقت فليس مَن خالف الحقّ داخلًا فيها"[3].

نُكْتَةُ تكرارِ ﴿أُمَّةً﴾ وعدمُ الاكتفاء بالوصف ﴿وَٰحِدَةً﴾:

الأُمَّـــةُ الـواحـدةُ حـــالٌ لازمـــةٌ لا خبرٌ محضٌ

في تكرار لفظ ﴿أُمَّةً﴾ بعد ذِكرها مُضافةً إلى جماعة المخاطَبين ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إن هذه أمتكم واحدة)؛ تأكيدٌ على وحْدة الأُمّة في الأذهانِ قبلَ وصفها بـ ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ ليتقرّر أنّ ﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19] منذ أُهبِط آدمُ عليه السلام على الأرض، وحتّى آخر الأنبياء بَعثةً؛ سيّدِنا محمّد ﷺ؛ ولبيانِ أنَّها حالٌ مُقيِّدة للأُمَّة في كونها واحدةً، لا مُجرّد الإخبار بذلك؛ أي: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ "ما لزموا الحَقَّ واتّبعوه؛ أمّا إذا تركوا لُزومَه وتركوا اتِّباعَه؛ فهي ليست بأُمَّةٍ واحدةٍ"[4].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 242.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 359.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 404.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 374.

فائدة الوصف بـ ﴿وَٰحِدَةً﴾:

جاء الوصفُ الصّريحُ ﴿وَٰحِدَةً﴾ للتّوكيد بِعُنصر الوحدة المفهوم من الموصوف ﴿أُمَّةَ﴾؛ فلا يبقى أثرٌ لِشكّ، ولا مجالٌ لريب في أُمّة الدّين الواحد ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، وأنَّ أُمّة مُحمّدٍ ﷺ هي الأُمّة الخاتمة المُهيمِنة الَّتي تستحقّ أن تكون أوْلى النّاس بهم، ومن معاني وحدة الأُمَّة هنا "أنّها توحِّد اللّهَ تعالى؛ فليس دونَه إله، وهذا حال شرائع التّوحيد، وبخلافها أديانُ الشّرك؛ فإنّها لِتَعَدُّد آلهتِها تَتشعَّب إلى عِدّة أديانٍ"(1).

الـوَحْـدة تتجلّى في أتباع الرُّسل وتتحلَّى بأُمّة مُحمّدٍ ﷺ

غرضُ تنكيرِ الموصوفِ وصفته:

نُكِّر لفظُ ﴿أُمَّةَ﴾ للتَّعظيم؛ فمِثلُ هذه الأُمّة بهذه العَظَمة، وتلك السَّعةِ في الزّمان والمكان والعَدد، جديرةٌ بالتَّعظيم والتَّفخيم؛ ولو عُرّفَ اللّفظُ فقيل: (الأُمّة الواحدة) فيذهبُ الذّهنُ إلى أُمّة مُعيَّنة محدَّدة تكون معهودةً لدى المُخاطَب، فيتناقضُ التّعريفُ مع المقصود الَّذي لا يُفْهَم إلّا من تنكير ﴿أُمَّةَ﴾.

تعظيمُ الأُمّةِ بكونها أمّةَ التّوحيد

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ "عاطفة"(2)، أو حاليّةٌ؛ أيْ: إنَّ هذه أمتُكم أُمّة واحدة، والحال أنّني أنا ربّكم الَّذي جاء الأنبياءُ جميعًا لإقرار وحدانيّتي في خَلْقي، وجاء نبيُّكم الخاتمُ ليُتمِّم ذلك.

غرضُ تقديم المُسنَد إليه على المُسْنَد:

أفاد تقديمُ المُسنَد إليه ﴿وَأَنَا۠﴾ على المُسنَد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ "الحصرَ؛ أيْ: أنا لا غيري؛ بِقرينة السّياق والعطفِ على ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ إذِ المعنى: (وأنا ربُّكم ربًّا واحدًا)؛ ولذلك فرَّع عليه

الـحَـصْـرُ المُفيد لعلّيّة العبادةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 141 ، ويُنظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 85.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 359.

الأمر بعبادته؛ أيْ: فاعبدوني دون غيري"[1]؛ لأنَّه لا إلهَ لكم غيري[2]؛ ففيه إشعارٌ بالعِلِّيَّة، وقد أفاد التَّشويق لمعرفة الخبر، وحَفز النّفوسَ إلى معرفة ما الصّفةُ أو الخبرُ المُتمم بعد تعديد الأنبياء والمرسلين السّابقين جميعًا في حُكْمٍ واحد.

نُكْتَةُ إفرادِ الضّمير والعُدول عن صيغة العَظَمة:

مقامُ التّوحيدِ يقتضي التّعبيرَ بضميرِ المُفرد دَفعًا لاحتمال التّشريك

ممّا يتناغم مع تقديم ضمير الجلالة ﴿وَأَنَا﴾ في إفادة قَصْر الوحدانيّةِ عليه سبحانه وتعالى إفرادُه؛ أيْ: إفراد الضّمير ﴿وَأَنَا﴾؛ لأنّ التّعبير بضمير العَظَمة (نا) في هذا السّياق مُلبِس، و"لمّا كان المقصودُ تعيينَ المُراد من غير لبسٍ؛ عَدَلَ عن صيغة العَظَمة فقال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾؛ أيْ: لا غيري في كلِّ زمانٍ وكلّ مكانٍ لكلّ أُمّة؛ لأنّي لا أتغيّر على طول الدّهر، ولا يشغلني شأنٌ عن شأنٍ"[3]، على أنّ ضمير المُفرد هنا يتضمَّن أيضًا معنى التّعظيم من حيثُ وحدانيةُ الواحدِ ﷻ وتفرُّدُه، وعدمُ مشاركتِه أحدًا إيّاه في ذاته وصفاته وأفعاله.

فائدةُ استعمالِ عنوانِ الرّبوبيّة:

مَنْ عَبَدَ ربَّه اختيارًا نال به عِزًّا وافتخارًا

آثَر النَّظمُ الكريمُ اختيارَ عنوانِ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ أيْ: "ربَّيتُكم اختيارًا؛ فاعبدوني شُكرًا وافتخارًا"[4]؛ فالرُّبوبيّة مُستفادة من ﴿رَبُّكُمْ﴾، فكان ذِكْرُها هو الحقيق بالمقام.

والآيةُ تُلمِح إلى واجبات الأُمّة نحو الإلهِ الواحد منَ العبوديّة الخالصة من كلّ شِرْكٍ، وإلى مصدر الرّزق والتّربية والتّعهُّد، وتُلوِّح بواجبات الأُلوهيّة وتَدعَم بفضائل الرّبوبيّة؛ فإنَّ حَقّ الله تعالى على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا؛ لمُجرّد التّفضّل عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 141.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 477.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 419.

بالإيجاد، فإذا أُضيف إلى ذلك الرّزق والعطايا؛ تأكّد وجه أحقيّته بذِكر الرُّبوبيّة بحقوق الأُلوهيّة.

ويُفسَّر الرّبّ بالإله؛ "لأنّه رُتِّب عليه الأمرُ بالعبادة والدّلالة على الوَحدة من حِدَة المِلَّة، وفي لفظ الرّبّ إشعارٌ بذلك من حيثُ إنّ الرّبّ إنْ توهِّم جوازُ تعدُّدِه في نفسه لا يمكن أن يكون لكلّ مربوبٍ إلّا ربٌّ واحدٌ؛ لأنّه مُفيضُ الوجودِ وكمالاته معًا، وفي العدول إلى لفظ الرّبّ ترجيحُ جانبِ الرّحمة، وأنّه تعالى يدعوهم إلى عبادته بِلسان التّرغيب والبَسط"[1].

نُكْتَةُ إضافةِ لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير المُخاطَبين:

تشريفُ العبادِ بجليل اسمِ المُنعِم وصريحِ النِّعم

في إضافة اسم الرَّبِّ سبحانه وتعالى إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ تنويهٌ بإنعامه عليهم، وتربيته إيّاهم، ورزقِه لهم، فَضَمِنَ لهم الرّزقَ، وطمأنَهم من هذه الجهة جهةِ الرّزق من طعام وشراب وأمنٍ وأمانٍ، وفي تلك الإضافة يَكتسب المضافُ إليه شرفَ المُضافِ ﷻ؛ إذ لا أحدَ أشرفُ من عبدٍ يعيش في كنف الرّبّ العزيزِ الرّحيم سبحانه وتعالى، فهو "ربُّ جميعِ النّاس وراعيهم وكالِؤهم؛ فكلُّهم خَلْقُه، وصُنعةُ يدِه، وكلُّهم غَذي نعمتِه وإحسانِه؛ تُقِلُّهم أرضُه، وتُظِلُّهم سماؤه، وتُغاديهم وتُراوِحُهم نِعَمُه؛ وإذا كان هذا صنيعه بهم، وشأنه فيهم؛ فهو المُستحقُّ للعبادة والطّاعة والولاء"[2].

نوع (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾:

الفاء تحتمل التَّفريعيَّة والفصيحة والسَّببيَّة

تحتمل الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أن تكون تفريعيَّةً؛ حيثُ فرَّعتْ ورتَّبتْ الأمرَ بعبادتهم إيّاه على كونه الرّازق المُنعِم عليهم: ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ فأحاطت مطالبُ الأُلوهيَّةِ عطاءَ الرّبوبيّة؛ ومَن كان رازقًا مُنعِمًا يُفيض بعطايا الرّبوبيّة على عباده؛ جديرٌ بأن يُعبَد،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 85.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 951.

وأنْ يُخْلَص له في العبادة دونَ سواه، إذ "أنتم مربوبون وأنا الرّبُّ، أنتم العبادُ وأنا رَبُّ العِباد، أنتم العابدون وأنا المعبود"[1].

وتحتمل أن تكون فصيحةً[2] تُفْصِح عن محذوف يُفْهَم من السّياق؛ والتّقدير: (وأنا ربُّكم - وما دمتُ ربّكم - فاعبدون).

وتحتمل أن تكون سببيةً[3]؛ أيْ: بسبب هذه الرُّبوبيّة الخالصة المُبدعة (اعبدون)، فرتّبَ العبادةَ على ما سبق بالفاء ترتيبَ المُسَبّب على سَبَبِه.

والمعاني الثّلاثة متقاربة وإنِ اختلفت اصطلاحات العلماء في التّعبير عن هذه الفاء؛ فالتّفريعيَّة لَلْحظ تفريعِ الفَرْع على الأصل، والفصيحة لملحظ التّنبيه على المحذوف المُقَدَّر، والسّببيّة لترتيب المُسَبّب على سببه.

غرضُ الأمرِ ودلالاتُه السّياقيّة:

المخاطَبون مُلزَمون بالعبادةِ وصيَّةً ثابتةً

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ محمولٌ على حقيقتِه؛ وهو الإلزام القاطع؛ أي: (يجب عليكم الأخذ به وتنفيذه، وأن تعبدوني وحدي لا تُشركون بي شيئًا عبادةً تليق بي من حيثُ الإخلاصُ والتّوجُّه)، وكذلك في هذا الأمر معنى الوصيَّة؛ أيْ: "أوصي ألّا يُعبَد سواه"[4]؛ فيَشعُر المتلقّي أنّ هذا الأمرَ يحمل بين طيّاته معانيَ النُّصْح والإرشاد والتّوجيه؛ رحمةً به وحرصًا على نجاته من غوايات الشّياطين، فأوامرُ اللّه تعالى لعبادِه رحمةٌ كلّها، وإن بدا لهم غيرُ ذلك، و"هذا الأمر ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ مُراعًى فيه ابتداءُ حالِ السّامعين مِن أُمَمِ الرُّسُل؛ فالمُراد من العبادة التّوحيدُ بالعبادة، والمحافظةُ عليها"[5].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 952.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 359.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 530، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير، ص: 4913.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 470.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 141.

فائدةُ استعمالِ لفظِ العبادة:

العبادةُ لفظٌ شاملٌ للعقائد والشّرائع والأخلاق

آثَر النَّظمُ اختيارَ لفظِ العبادة في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ ليشملَ عمومَ العقائدِ والأحكام والأخلاق الإسلاميَّة الَّتي أسَّس لها الدّينُ الحنيف، فيَعُمّ واجباتِ العبدِ لربّه ﷻ من اعتقاد وحدانيّته في ذاته وصفاته، والتزام بشريعته ﷺ، فهو تعبير كنائيٌّ عن الإخلاص في الاعتقاد؛ لأنَّ العبادة فيضُ الاعتقاد الرّاسخ، ولا اعتبارَ في الإسلام لاعتقادٍ غيرِ مدعومٍ بعبادةٍ وعملٍ للصّالحات؛ لذلك دَرَج الذِّكرُ الحكيم على ربط الإيمان بالعمل الصّالح ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، و"جائزٌ أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ أيْ: (توحّدون) على ما قال أهلُ التّأويل؛ لأنّه إنّما خاطب به أهلَ مكّة"[1].

توجيه المُتشابِه اللّفظيّ في انتقاءِ الألفاظ:

التّقوى في اجتناب المنهيّات والعبادةُ في إتيان الواجبات؛ فهما متكاملان

قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وفي سورةِ المؤمنون: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون: 52]؛ وذلك "ليُعلَم أنَّ العبادة والتّقوى واحدٌ في الحقيقة؛ لأنّ الاتّقاء هو ما يُجْتَنَب من الأفعال، والعبادةَ ما يُؤتَى من الأفعال والعبادة، فإذا اجتَنب ما يَجب اجتنابُه؛ فقد أتى بما يجب إتيانُه، وإذا أتى بما يَجب إتيانه؛ فقد اجتنب ما يجب اجتنابُه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]؛ لأنّه بفِعله إيّاها مُجتَنِبٌ عن الفحشاء والمُنكَر"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأُمَّة والمِلَّة:

الأُمّة أعمُّ من المِلَّة؛ والمِلَّةُ تُطلَق على الدّين والشّريعة والطّريقة المسلوكة

"الأُمّة: الصِّنْف من النّاس، والجَماعَة، والمِلَّة، والحين، والإمام، والصِّنْف"[3]، و"المِلَّة بالكسر: الدّين والشّريعة"[4]، وهي اسمٌ لما

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 374.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 374.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 142.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ملل).

شرع اللّهُ تعالى لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصَّلوا به إلى جوار الله، وهي النِّحْلة الَّتي ينتحلها الإنسان من الدّين؛ كمِلّة الإسلام والنّصرانيّة واليهوديّة، وقيل: هي معظم الدّين، وجملةُ ما يجيء به الرُّسل[1]، وتُطلَق المِلّة مجازًا على الطّريقة المسلوكة[2]، ولا تُستعمل إلّا في جملة الشّرائع، ولا تُضاف إلّا إلى النّبيّ، فتُسند إليه نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف: 38]، ولا تكاد توجد مُضافةً إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أُمّة النّبيّ ﷺ، ولا تُستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها؛ فلا يُقال: مِلّة الله تعالى، ولا مِلّتي، ولا مِلَّةُ زيد كما يُقال: دين الله، ودين زيد، ولا يُقالُ: الصّلاة ملّةُ الله[3].

(1) الرّاغب، المُفردات: (ملل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ملل).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 511، والرّاغب، المُفردات: (ملل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»